سيرة النبي الأعظم في الدعوة الاسلامية*

تأمّلات في القرآن والسيرة

الشيخ عبدالله جوادي آملي

مدخل

تتضمّن الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾[1] دعوة واضحة للاهتمام الفائق بالظاهرة القرآنية، وقد جاءت الدعوة هذه في فعلين متتابعين هما الاستماع ثم الإنصات الذي يمثّل أعلى درجة من الاستماع والإصغاء.

فالإنصات ينهض بحالة فريدة وفائقة من حالة الإصغاء. فربّما تكون حالة الاستماع والإصغاء لصوت ما لذاته فقط.

أمّا الإنصات فيتجاوز هذه الحالة لاستكشاف ما وراء الصوت. وهذا يعني أن المطلوب من الاستماع للظاهرة القرآنية هو حالة من التدبّر والتأمّل والاستكشاف.

وهذا الموضوع ـ الذي بين يديك عزيزي القارئ ـ رحلة في استكشاف سيرة النبي صلى الله عليه وآله من خلال تأملات في الإشارات القرآنية التي يتطلّب استلامها قلباً يعيش تلك الحالة الفريدة من الإصغاء وهي الإنصات.

والقارئ مدعوّ إلى معايشة هذه الحالة في تتبّع إشارات الموضوع، وأن يبذل جهداً نفسياً عبر التأمّل في الأفكار التي تتطلّب تلك الحالة من الإصغاء والإنصات التي يتّحد خلالها العقل والقلب والروح.

المترجم

سيرة النبيّ في الوعظ والإرشاد

إن سيرة النبي الأكرم في الوعظ والإرشاد والدعوة ـ وكما هي سيرته في الاحتجاج ـ تنقسم إلى قسمين:

ـ قسم يرتبط مباشرة بالقرآن الكريم وله في التفسير الموضوعي مكانة واضحة وقد أثبت منه قدر كاف.

ـ قسم آخر في الوعظ والنصح وليس له ارتباط مباشر بنصوص القرآن الكريم، رغم خطوطه العريضة التي تنسجم مع وحي ومضمون القرآن الكريم. ولذا فهو يخرج عن بحوث التفسير الموضوعي مع إمكان توظيفه

---

* ترجمة: كمال السيّد.

كتعزيز أو شاهد.

إن الله عزّ وجلّ يقدّم رسوله أسوة وقدوة للمجتمع الإنساني، وإن ذلك يكشف أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله كان على اطّلاع بالأوصاف الإلهية كقدوة، وأن الله عزّوجلّ قد وهبه صفات الكمال ومنحه كيفية تعليم وتزكية النفوس القابلة لتلك الصفات.

لقد أمر الله عزّوجلّ الإنسانية بالاقتداء بنبيّه، لأنه كتاب نور ليست فيه نقطة إبهام ولا نقطة ظلام.

وإن أهم أقسام سيرة النبي صلى الله عليه وآله ما جاء منتظماً وفق معارف القرآن الكريم، وهو عبارة عن:

□ القراءة. □ التدبّر.

□ المعرفة. □ العمل.

□ النشر. □ التبليغ.

وهذا يعني أن الله عزّوجلّ قد أمر بتلاوة القرآن الكريم، وهي عبادة لفظية «تقرأونه صباحاً ومساءً». وأوصى بتدبّر معانيه وهي عبادة فكرية، والإيمان بمعارفه وهي عبادة قلبية، والعمل به وهي عبادة الجوارح؛ ذلك أن حلقة الوصل المباشرة بين المبدأ والمعاد إنّما تكمن في القرآن الكريم.

فشروعه من المبدأ وغايته في المعاد، وإن الإنسان الذي يسلك الصراط المستقيم يتوجّب عليه أن يرافق القرآن من معرفة المبدأ، إلى أن يحطّ رحله عند لقاء الله؛ وذلك لأنه يستحيل السير من المبدأ إلى المنتهى واستيعاب هذه المعارف، من دون قيادة القرآن وهدايته.

ومن هنا قال الله عزّوجلّ: ﴿*إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم*﴾[٢].

ولو كان هناك كتاب آخر يعادل القرآن في قدرته على قيادة السالكين إلى الحق، لما اختص الله عزّوجلّ القرآن بقوله: ﴿*وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم ترحمون*﴾[٣].

وعندما تأمرنا الآية الكريمة بالإصغاء للقرآن والإنصات، فإن معنى هذا أننا نقف أمام حقائق محضة، فلا يوجد كتاب آخر يناظر القرآن لنعلم الفرق بينه وبين الكتب الأخرى في هذا المضمار.

القرآن يرشّد السيرة

فالسبب من اعتبار سيرة النبي معلّماً كونها تنهض على أساس التوحيد وعلى أصل المعاد وعلى أرضية القرآن الكريم. وهو ما سنبدأ بحثه الآن.

وبالطبع فإنّ القرآن ينطوي على الأبعاد الثلاثة المذكورة؛ على أن التفكيك بينها سيزيد الموضوع وضوحاً.

لقد مجّد الله عزّوجلّ القرآن الكريم كما ذكر لسيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله صفات كمالية عديدة.

فقد وصف الله عزّوجلّ القرآن الكريم بالقول الثقيل في قوله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾(٤).

ومن ثم لا يوجد كتاب يبلغ عظمة وثقل القرآن الكريم، وهذا التأكيد يدفع المرء إلى التدبّر والاستفادة.

لقد دعا الله عزّوجلّ رسوله إلى تلاوة القرآن والتدبر فيه، ثم دعا سائر الناس والسالكين صوب الحق إلى التأسّي بالنبي صلى الله عليه وآله؛ فقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾(٥).

ذلك أن أسلوب القرآن الكريم في الدعوة إلى اتّباع النبي صلى الله عليه وآله لا تكون حتى تتجسّد الخطوط العريضة في سيرة النبي.

فهناك بيان صريح لسيرة النبي صلى الله عليه وآله واضحة بحيث لا يبقى مكان للإبهام فيها.

الرسول أسوة في القراءة والتدبّر والعمل بالقرآن

فمن صفات النبي صلى الله عليه وآله وسيرته التي أصبح فيها أسوة للإنسانية هي تلاوته للقرآن والتدبّر في آياته والعمل بها. وكان النبي في ذلك يمثّل الأوج والذروة.

ومن ثم جاءت الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسّر من القرآن﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾(٧).

إن الله عزّوجلّ قد ذكر لذاته أوصافاً كان قد وصف بها النبي صلى الله عليه وآله كقراءة القرآن مثل قوله تعالى: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾(٨)، وقوله تعالى: ﴿فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه﴾(٩). ومعنى هذا أن أوّل قارئ للقرآن وأوّل جامع لآياته هو الله عزّوجلّ، ثم أوصى نبيّه الأكرم في قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾(١٠) ثم إن النبي صلى الله عليه وآله أوصى المسلمين بقراءة وحفظ القرآن الكريم.

وكذا في مضمار التلاوة فإن الله عزّوجلّ يصرّح بأنّه يتلو القرآن على الرسول ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾(١١)، ثم هو سبحانه يأمر نبيّه بأن يتلو آيات الله على الناس: ﴿اتل ما أوحي إليك من كتاب ربّك﴾(١٢). وثَم شهادة للقرآن في حق النبي صلى الله عليه وآله في هذا المضمار في قوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياتنا﴾(١٣).

وأيضاً نجد ذلك في ترتيل القرآن إذ نجد الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ورتلناه ترتيلا﴾(١٤)، ثم هو يأمر رسوله بذلك؛ فيقول: ﴿ورتّل القرآن ترتيلاً﴾(١٥).

القرآن كلام الله أصالة وقول الرسول بالتبع

فإذا رأينا الله سبحانه يصف القرآن بأنه كلماته، فهو أيضاً يصفه بأنه قول رسول الله في قوله تعالى:

▣ السبب في اعتبار سيرة النبيّ معلّماً كونها تنهض على أساس التوحيد وعلى أصل المعاد وعلى أرضية القرآن الكريم.

﴿إنه لقول رسول كريم... وما هو بقول شيطان رجيم﴾(١٦).

فهو حديث رسول إلهي قد يكون ملك الوحي، وقد يكون الرسول الأكرم، لأنّ الرسول الكريم ينطبق على كليهما، إذ يمكن للقرآن أن يكون كلامهما معاً، مع التأكيد أنه كلام الله أصالة، ثم كلام الملك، وبعده النبي *صلى الله عليه وآله* فإن الله هو الذي يتكلّم على لسان النبي وجبريل. فهما في الأصل ليسا مصدراً للوحي بل حَملة له، وامتيازهما أنهما يدركان ما حُمّلاه ويبلّغان محتواه. فجبريل الأمين وقلب الرسول الكريم ليسا شريطاً تسجيلياً لا يفقهان ما يحملان.. إنّهما يدركان معاني الوحي ومفاهيم الكلمات ويعلمانها علماً حضورياً؛ فأصبحا متكلّمين ومبلّغين.

النبيّ مأمور بتلاوة القرآن

▣ من صفات النبيّ صلى الله عليه وآله وسيرته التي أصبح فيها أسوة للإنسانية هي تلاوته للقرآن والتدبّر في آياته والعمل بها.

إن الله سبحانه وتعالى جعل تلاوة القرآن فرضاً نبويّاً، فقال:

*﴿إنّما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فقل إنّما أنا من المنذرين﴾*(١٧).

ولقد علّم الله رسوله أدب التلاوة فقال: *﴿ورتّل القرآن ترتيلاً﴾*(١٨).

فالترتيل قراءة في إيقاع منسجم منتظم،

تتجلّى فيه جميع الحروف والكلمات. فلا يبقى مكان للغموض؛ وعليه يجب أن يتناغم ظاهر القرآن مع باطنه ومحتواه المعنوي المنسجم والمنتظم.

الانتفاع بالقرآن منوط بالتحرر من الوساوس الداخلية والخارجية

ولمّا كان القرآن قولاً ثقيلاً، فإن على الإنسان ـ إذا أراد سلوك هذا الطريق وطيّه ـ أن يكون على حذر من قطّاع الطريق، وأن يستفيد من كل خير.

ومن هنا أمر الله الذين يتلون القرآن ويسلكون طريقه بإزالة الجانب السلبي في هذه المسألة إضافة إلى تثبيت الجانب الإيجابي، فقال عزّ من قائل: ﴿*فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم*﴾[١٩]. ذلك أن الانسان لا يكون له من القرآن نصيب ما لم يطرد عن نفسه وساوس الشيطان وتقاليد الجاهلية، وما لم يصفِّ ذهنه من كل أحكام مسبقة.

فهذا الذي يأتي القرآن وهو ينوء بأحكام مسبقة إنّما يجعل من القرآن ضيفاً عنده، ولا يجعل من نفسه ضيفاً على القرآن، فلا تجري على لسانه إلا ألفاظ القرآن، دون أن تمسّ روحه المعاني؛ فيكون مصداقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «*ويل لمن لاكها ولم يتدبّرها*»[٢٠].

▣ الترتيل قراءة في إيقاع منسجم منتظم، تتجلّى فيه جميع الحروف والكلمات. فلا يبقى مكان للغموض؛ وعليه يجب أن يتناغم ظاهر القرآن مع باطنه ومحتواه المعنوي المنسجم والمنتظم.

▣ إن الانسان لا يكون له من القرآن نصيب ما لم يطرد عن نفسه وساوس الشيطان وتقاليد الجاهلية، وما لم يصفِّ ذهنه من كل أحكام مسبقة.

الاستعاذة دفعية للرسول رفعية لغيره

ومع مصونيته صلى الله عليه وآله وحصانته من كل الوساوس الشيطانية لأنّه من (المخلصين) وأن طريق الشيطان مسدود عليه، ولكن استعاذته صلى الله عليه وآله إنما تنطوي على بعد دفعي لا رفعي. أمّا الآخرون الذين أمروا بالاقتداء بالنبي فيشملهم الأمر بالاستعاذة لأنهم في مقام الرفع، والإنسان المعصوم يستعيذ لدفع الشيطان وطرده، والآخرون يستعيذون لرفع المخاطر المترتبة على حضور الشيطان، فلكي يكونوا في رحاب القرآن يتوجّب عليهم طرد الغبار وتصفية الباطن.

والاستعاذة، من آداب القرآن الكريم، وهي لا تنحصر في البدء بتلاوة القرآن، بل هي شرط لازم عند القراءة.

فلو أن امرأً أراد أن يقرأ القرآن ساعة، فيوجب عليه أن يرافق في عمله هذا الاستعاذة ليكون في مأمن من همزات الشيطان؛ لأنّ الشيطان إنّما يقف له بالمرصاد ينتهز الفرصة في كل لحظة.

معنى الاستعاذة

وليس معنى اللجوء إلى الله والاستعاذة به هو تلك الألفاظ التي يقولها القارئ: *أعوذ بالله من الشيطان الرجيم*. إن هذا لهوَ الدرجة الدنيا في الاستعاذة، وهو عبادة لسان فقط، بينما الاستعاذة الحقة لجوء كامل.

فعندما تدوّي صفّارة الإنذار، فإن المرء لا يقف في الهواء الطلق يقول: إنني أذهب إلى الملجأ، إن هذا لا يعني لجوءاً أبداً.

وعندما يقول الله عزّوجلّ: ﴿*وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله*﴾[٢١] فإنه يعني إذا ما رأيت شيطاناً يوسوس لك ويداهمك فإن هذا صفّارة إنذار؛ إذن يتوجّب عليك اللجوء إلى حصن التوحيد الحصين، والقلعة الإلهية القاهرة وحصن القرآن والعترة الطاهرة.

ومن هنا فإن الإنسان الذي ينشد طريق الحق ويسلكه، فإن الشيطان يتربّص به الدوائر ليقطع عليه ذلك الطريق.

أما الإنسان الخامل والعاطل والمنزوي، فالشيطان يتركه لحاله، فلا يداهمه، لأنّه في قبضته وفي مرمى سهامه.

حتى إذا بدأ الإنسان بقراءة القرآن وتحرّك في الطريق، بدأ قطّاع الطريق عملهم، ولذا يتوجّب على قارئ القرآن أن يتحصّن بحصن الله الحصين بدءاً واستمراراً، لأنه وكما ذكرنا أن وسوسة الشيطان تتزامن مع قراءة القرآن وتستمر معها.

التصفية والتجلية

فالخلاص من الرذائل هو بالاستعاذة، والله سبحانه يخاطب رسوله لإيجاد البعد الايجابي بقوله: ﴿*اقرأ باسم ربك الذي خلق*﴾[٢٢].

فذِكر الله يتجلّى في قلب القارئ، في البدء وفي الاستمرار، وهذا لا يختص برسول الله وحده، وما يخصّه صلى الله عليه وآله وحده عن سائر الناس هو استلام الوحي الذي ﴿*نزل به الروح الأمين * على قلبك*﴾[٢٣].

وكما مرّ في التصفية والاستعاذة، فمعنى التجلّي في القراءة ليس قول القارئ: *بسم الله الرحمن الرحيم*، ثم يغفل عن ذكر الله، بل المراد من البسملة أن قارئ القرآن يواكب ذكر الله من بدء القراءة إلى انتهائها فيبقى اسم الحق في قلبه وفؤاده.

وأسماء الله التي يقرأها القارئ ما هي إلّا درجات فيضه الإلهي التي يتوجّب على الإنسان تقديسها وتنزيهها: ﴿*سبح اسم ربّك الأعلى*﴾[٢٤]، فمثلما نسبّح الربّ ونحمده نسبّح اسمه ونمجّده.

وما اسم الحق وأسماؤه الحسنى إلّا تعبير عن شؤون الربوبية، وإن الله سبحانه يدبّر أمر العالم من خلال تلك الأسماء. ولذا فهي جديرة وأهل للتقديس والتنزيه. أما الألفاظ التي تدلّ على تلك الأسماء، فلها احترام اللفظ وحسب؛ لأنها تعبّر عن مفهوم تلك الحقائق العالية.

وعلى هذا تكون التصفية من همزات الشيطان في الداخل والخارج مطلوبة ولازمة، وكذا تجلّي الأسماء الحسنى بالحق هي الأخرى ضرورية في أعماق الإنسان وخارجه.

وهذا يعني الاستعاذة من العدو في الداخل والخارج، أي وساوس النفس والشيطان.

والله سبحانه يقول: ﴿*ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه*﴾[٢٥]، ويقول عن الشيطان: ﴿*الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنّة والناس*﴾[٢٦].

الأسماء الحسنى لله توفّر للإنسان أمنة في الداخل والخارج، ليكون الإنسان في ضيافة القرآن، فقد علّمنا الله عزّوجلّ كيف ندفع الأخطار الداخلية والخارجية.. علّمنا الاستعاذة، ونصَب لنا معالم الهدى في الطريق.

وكذلك أيضاً في تجلّي الحق في القلب وتيمّنه والتبرّك حسّاً ولفظاً، وأبعاد الخارج ـ كأبعاد ـ ستكون شريكة في الصفات الإيجابية والسلبية.

حقائق القرآن تشيب الإنسان

ولو أن إنساناً يتلو ـ بالشروط التي ذكرنا ـ القرآن، لرأى آثاراً عميقة. ولذا روي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «*إني لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأتُ* [أو أقرأ] *القرآن*»[٢٧].

فالقرآن كتاب يشيب الإنسان، لأنّه يضعه وجهاً لوجه أمام الحقائق، فيشعر القارئ بالصغار وهو يلمس عظمة القرآن، فيرى المستقبل حاضراً فيشعر بالرعب.

▣ الأسماء الحسنى لله توفّر للإنسان أمنة في الداخل والخارج، ليكون الإنسان في ضيافة القرآن، فقد علّمنا الله عزّوجلّ كيف ندفع الأخطار الداخلية والخارجية.. علّمنا الاستعاذة، ونصَب لنا معالم الهدى في الطريق.

فالقيامة مثلاً حقيقة قرآنية.. إنها يوم عصيب يجعل من الأطفال شيوخاً: ﴿*فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً*﴾(٢٨).

وهذا لا ينحصر في حقيقة واحدة أو قسم من القرآن؛ وإن قال النبي صلى الله عليه وآله: «*شيبتني سورة هود*»(٢٩).

فإذا وضعنا سورة الواقعة إلى جانب سورة هود أدركنا القاسم المشترك بينهما، وسبب الشيخوخة.

على أن مسألة المعاد قد طرحت في كثير من سور القرآن الكريم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن جميع المعارف القرآنية هي مقولات ثقيلة.

وبالطبع فإن لكل سورة ولكل آية خصيصتها التي تمتاز بها عن غيرها من الآيات والسور، ولكنّها متساوية في الخطوط المشتركة ولها تأثيرها المتوحّد، وعندما يقول النبي صلى الله عليه وآله «*إني لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأت القرآن*» فلأن معارف القرآن قول ثقيل، ولقد ذكر رسول الله الاستقامة التي أُمِرَ بها في سورة هود التي تشترك معها سور أخرى كثيرة في مسائل الصبر والصابر والصبور.

فالقرآن الكريم بكل آياته هو قول ثقيل ينوء المرء به ويشيب، ولقد وردت الروايات أن رسول الله أمر ابن مسعود أن يقرأ القرآن قائلاً له:

ـ اقرأ القرآن.

فلم تكن في سيرة النبي أنه كان يتلو القرآن فقط.. كان يستمع إلى القرآن، لما في ذلك من لذّة.

وقرأ ابن مسعود حتى إذا وصل الآية الكريمة: ﴿*فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا*﴾(٣٠) جرت الدموع من عيني رسول الله صلى الله عليه وآله وأشار إلى صاحبه أن يكتفي بهذا القدر.

قراءة القرآن ورفع الحجب

لقد كانت قراءة القرآن لرسول الله كشفاً للحجب وكانت لبعضهم حجاباً، قال الله عزّوجلّ: ﴿*وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً*﴾(٣١).

فهناك حجاب يضرب بستره بين النبي وبين بعض الناس لدى قراءته القرآن الكريم.

ربّما يكون الحجاب أحياناً مادّياً وجسمانياً مثل الجدار فهو حجاب محسوس ملموس، ولكن بعض الحجب ليست ملموسة كالإثم والذنب والمعصية والغفلة، وهي تَحُول دون رؤية الله تعالى.

ومن هنا قال الإمام السجاد زين العابدين: «*وإنك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك*»(٣٢).

فالاستغراق في الذات والأنا غفلة تحول دون رؤيته سبحانه وحجاب يحجب الإنسان عن ربّه «*وجودك ذنب لا يقاس به ذنب*»(٣٣).

فالحجب تحول بين الناس ورؤية معارف الغيب فهم يعيشون حرماناً منها.

يقول القرآن الكريم:

﴿*كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون*﴾(٣٤)، فهؤلاء يومئذ يحرمون من مشاهدة جمال الحق بالرغم من حالة الشهود التي يعيشونها بمرارة يوم القيامة فيقولون: ﴿*ربّنا أبصرنا وسمعنا*﴾ فيكون مصيرهم جهنم وبئس القرار.

▣ لم تكن في سيرة النبيّ أنه كان يتلو القرآن فقط.. كان يستمع إلى القرآن، لما في ذلك من لذّة.

▣ إن المرء إذا ما أراد أن يتعرّف مسيرة النبيّ في تلاوة القرآن واستكشاف معارفه، ويقتدي بالنبيّ صلى الله عليه وآله، فإن عليه أن يعرف أسلوب رسول الله في قراءة القرآن.

▣ الرسول نظير للقرآن فهو لا ينطق إلّا عن القرآن في باطنه وجوهره. ولذا وجب الإصغاء إليه، فكلامه هو كلام الله عزّ وجلّ جاء في شكل حديث لرسول الله.

وعلى هذا، فإن المرء إذا ما أراد أن يتعرّف مسيرة النبي في تلاوة القرآن واستكشاف معارفه، ويقتدي بالنبي صلى الله عليه وآله فإن عليه أن يعرف أسلوب رسول الله في قراءة القرآن.

ولو أن شخصاً قرأ القرآن وفق هذه المعايير والشروط لأصبح كلامه كلام القرآن ولوجب الإنصات إليه واحترامه.

ومن هنا كان الإصغاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله واستماع حديثه واجباً، فليس لأحد أن يقول إن النبي هو كسائر الناس في تفكيره وإن الآخرين يناظرونه في قوّة الفكر والتفكّر.

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله يمتاز بمعيّة القرآن له ومعيّته للقرآن، فأضحى وجوده في مأمن من همزات الشياطين، وفي غمرة الأسماء الحسنى لله، بل إنه مظهر للاسم الأعظم.

لزوم الاستماع والإنصات لكلام الرسول

ومثلما جاء في حق القرآن قول الله عزّوجلّ: ﴿*وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا*﴾[٣٥]، يمكن القول: إذا تكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله بكلام ديني فاستمعوا له وأنصتوا. ذلك لأنه جاء في رسول الله قول الله سبحانه وتعالى: ﴿*وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا*﴾[٣٦].

فالرسول نظير للقرآن فهو لا ينطق إلّا عن القرآن في باطنه وجوهره. ولذا وجب الإصغاء إليه، فكلامه هو كلام الله عزّوجلّ جاء في شكل حديث لرسول الله، فوجب استماعه والإصغاء إليه والإنصات له.

يقول الرسول صلى الله عليه وآله:

«*إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي*»[٣٧]، ومن ثم يتوجّب الإصغاء إلى العترة عليهم السلام. فإذا تكلّمت وجب الإنصات لها والاستماع إليها.

فإذا تحدّث المعصوم في مسائل الدين وقضايا العقيدة وجب السكوت عنده والإصغاء له، ذلك أن المعصوم قد حلَّ في مكان الذي ﴿*وما ينطق عن الهوى*﴾[٣٨]، فهؤلاء العظماء هم بدورهم أيضاً وحيٌ ناطق وقرآن متحرِّك.

وإذن فلا يجوز لأحد أن يقول إن رسول الله وعترته هم كسائر الناس في فكرهم وآرائهم، وإننا أيضاً لنا فكرنا ورأينا كنظراء للمعصوم!

معية القرآن

لقد جعل الله النبي بمنزلة القرآن في قوله تعالى: ﴿*واتّبعوا النور الذي أنزل معه*﴾[٣٩]، وهذا يعني أمراً بطاعة النبي الذي أنزل النور عليه.

ومن هنا يتّضح أنّهما معاً لهما حضورهما لدى الله عزّوجلّ، فأحدهما مُنزل والآخر مُرسل.

صياغة الإنسان

ولو أردنا أن نصوغ من الإنسان الكامل كتاباً لكان القرآن، ولو أردنا أن نحوّل القرآن إلى إنسان كامل لكان النبي *صلى الله عليه وآله*.

وإذن ما دام فعل الحق وقوله صادقاً، وما دام ظهور الحق والفيض لله متحقّقاً، فالإنسان الكامل ظهوره في مرتبة أسمى من الكلام تتجسّد في شخص المتكلّم الذي هو القرآن والإنسان الكامل.

فهناك ملاك لازم بين كل تقدّم وتأخّر أو معيّة بين شيئين، يعني لو أن شيئين لا يشتركان في أمر ثالث فلا التقدم والتأخر بينهما ثابت ولا المعية. ولكن ذلك الملاك في أحدهما والآخر تابع له في الإفادة. فمثلاً إن ملاك المعية القيومية في ﴿*وهو معكم أينما كنتم*﴾[٤٠] هو الذات الإلهية المقدّسة، لا أن الله مع غير الله مشتركان في أمر ثالث ولا أن الله مع غير الله لهما معية في شيء ثالث.

فعندما يقول أن القرآن مع النبي فملاك المعية هو ذات الإنسان الكامل: ﴿*واتّبعوا النور الذي أنزل معه*﴾، ومن هنا يتّضح بأن القرآن نزل بمعية النبي، لا أن النبي مع القرآن أو النبي والقرآن بمعية شيء ثالث، ذلك أنه من غير الممكن لشيء ثالث أن يظهر ليأتي النبي بمعيته.

وبالطبع في مراحل أدنى يأتي حديث جبرئيل، وأمّا ما يقوله جبرئيل نفسه: «*لو دنوت أنملة لاحترقت*»[٤١]، وقول الملائكة: ﴿*وما منّا إلّا له مقام معلوم*﴾[٤٢] فلا يترك مجالاً لمعية شيء للنبي *صلى الله عليه وآله*. ومن هنا فإن ملاك معية القرآن للإنسان هو الإنسان الكامل وإن كان هناك شمول فيض له وعلاقة به.

فوفق الآية الكريمة: ﴿*واتبعوا النور الذي أنزل معه*﴾ تكون معية القرآن والإنسان الكامل هو رسول الله *صلى الله عليه وآله* ونستنبط من هذا أن الإنسان الكامل هو الأصل والقرآن معه، وإن كانت نشأة الناسوت وعالم طبيعة القرآن هو الثقل الأكبر، ولكن لو أننا بحثنا ذلك بدقّة لوجدنا أنه لا موجود أسمى مرتبةً من الإنسان الكامل في عالم الإمكان.

وما دام ظاهرُ القرآن ظاهرَ النبي، وباطنُه باطنَ النبي، وأن رسول الله هو أوّل ظهور للحق والقرآن الذي هو نظير النبي أو دونه، فلا مكان للافتراض أن للقرآن درجة لا توجد لدى الإنسان الكامل. كما أن حقيقة الله ليست إلّا القرآن كي يمكن القول أن القرآن أسمى. فالقرآن هو كلام الحق، كما أن الإنسان هو كلمة الله.

وإذن ففي مقام الظهور والإبداع لا يوجد شيء أو شخص أسمى من النبي الكريم *صلى الله عليه وآله*.

والفرض هو لو أن امرأً اقتدى برسول الله في تلاوته، لطوى قبل غيره طريق النبي؛ وبشكل يكثر فيه من قراءة القرآن ويستعيذ

من قطّاع الطريق في الداخل والخارج، ويستعين طوال زمن القراءة بدليله في الداخل والخارج، ويضع وجوده كلّه في رحاب القرآن ويحوز شرط الإنصات والاستماع حتى ليكون هو القارئ والمستمع، ويعتبر نفسه قارئاً للقرآن بحق ومظهراً للمتكلّم بصدق.

ولو أن امرأً حلَّ في رحاب القرآن بهذه الرؤية، لأصبح مشمولاً بالحديث الذي يقول: «*... ما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى أو نقصان من عمى*»[٤٣].

وكذلك ما ورد في حق المؤمنين الصادقين في قوله تعالى: ﴿*زادهم هدى وآتاهم تقواهم*﴾[٤٤].

وقوله تعالى: ﴿*وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً*﴾[٤٥].

والمراد من زيادة الإيمان شدّته، تلك الشدّة الناجمة عن المعرفة التي لا تحصل إلّا بشرطين أحدهما اجتناب الموانع، والآخر تهيؤ الظروف.

وشروط ازدياد الإيمان في قراءة القرآن هي:

أوّلاً التلاوة باسم الربّ ﴿*اقرأ باسم ربّك*﴾[٤٦].

ثانياً: التدبّر في المعاني.

ثالثاً: الإنصات إلى تلاوة الآخرين.

فكما أن التلاوة تستلزم التأدّب بأدب الله، فإن للإنصات أدبه، لأن السكوت والإصغاء من واجبات المستمع. غير أن الاستماع والتدبّر في المعاني أمر مشترك بين القارئ والمستمع.

وللفقهاء والمفسّرين في مسألة الاستماع آراء مختلفة، ولكن المشهور بين الفقهاء أنّ مفاد الآية: ﴿*فاستمعوا له*﴾[٤٧]، له حكم استحبابي.

على أن زعماء الإمامية يحملون الآية محمل الوجوب، فيما يحصر بعضهم حكم الوجوب في حالة صلاة الجماعة فقط. أي إن إمام الجماعة وهو يقرأ سورة الحمد والسورة الأخرى يوجب على المأموم السكوت والاستماع؛ وهذا تؤيده رواية عن الإمام الباقر عليه السلام بهذا المضمون.

وعليه فلو أن امرأً يقرأ القرآن، وآخر مشتغل باستماع كلام غيره، يكون قد حرم نفسه من فيض الإصغاء، وحرم الآخر من سعادة الإنصات والاستماع.

وظاهر الآية: ﴿*وإذا قرئ القرآن*﴾[٤٨] التي تبدأ بفعل للمجهول (قرئ)، أنها تشمل الذي يتلو القرآن، والذي يمكنه أن يكون قارئاً للقرآن بلسانه، وفي حالة إصغاء، وعندما تتّحد القراءة مع الإصغاء تكون القوّة العاقلة في وضع أفضل وفي حالة تدبّر أكثر. وهكذا كان رسول الله في حال القراءة.

الوقت الأفضل لقراءة القرآن

قال الله سبحانه في سورة المزمّل المباركة: ﴿*قم الليل إلّا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً*﴾[٤٩].

ويستفاد من هذه الآيات أن أفضل وقت لقراءة القرآن هو في جوف الليل، سواء في صلاة الليل أو في الأسحار، ذلك أن الليل فرصة مناسبة جدّاً لمناجاة الله، لأن الاستماع سيكون أسهل وكذا الإنصات؛ ﴿*إن ناشئة الليل هي أشدّ وطأً وأقوم قيلاً*﴾[٥٠].

ولو أن امرأً استمر على هذا الطريق فإن بعضاً من أسرار العالم ستنكشف له، وستنحسر عن قلبه الحُجب. فالذين لا يسلكون هذه الطريق فإن حجاباً مستوراً لن يدعهم يدركون حديثه، ولقد كان هناك من لا يدركون كلمات القرآن وهي تجري على لسان النبي لأن الشيطان قطع عليهم طريق الإدراك: ﴿*...لأقعدن لهم صراطك المستقيم*﴾[٥١]، فالشيطان قد كمن لهم في الصراط المستقيم، فلا هو يسلك الطريق، ولا هو يسمح لغيره بطي طريق الحقّ ذاك.

وتلاوة القرآن والاستماع إليه من أبرز مصاديق الطريق المستقيم، والذي يكمن الشيطان ليقطعه على السالكين.

إن أساس القرآن هو تلاوته بتدبّر لا قراءته بلا تدبّر، ومن هنا قال النبي صلى الله عليه وآله: «*ويل لمن لاكها*». وهذا التهديد لا ينحصر في بعض آيات القرآن دون غيرها، مع خصوصية المناسبة التي صدر فيها الحديث، ولكن لا خصوصية في ذات الموضوع، لكي تكون سبباً في التخصيص أو التقييد العام أو الإطلاق؛ ولأن القراءة أرضية للتدبّر. ومن هنا قال الإمام علي عليه السلام: «*نوّروا بيوتكم بتلاوة القرآن*»[٥٢].

وكما بيّنا في بحث القراءة أنّ الاستعاذة لازمة من بدء القراءة حتى انتهائها، فكذلك التدبّر والتأمل في القرآن الكريم، وكذا بعد إثبات القراءة «باسم الرب» فإنه لازم ثبوته في التدبّر؛ ذلك أن وسوسة الشيطان لا تنحصر في نشاط الجوارح والأعضاء بل إن قسماً هامّاً (من الوسوسة) يختص في أعمال القلب:

﴿*وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم*﴾[٥٣].

والبحوث المنطقية عندما تعلّم الإنسان فن المغالطة، فلأنها تريد أن تنقذ فكره من الغلط ومن تغليط الآخرين، وسدّ الطريق على الشيطان.

إن الشيطان لا يوسوس للإنسان ويدفعه إلى ارتكاب الذنب فحسب بل هو يوسوس له أيضاً في مسائل نظرية وفكرية فيجرّه إلى الخطأ في التفكير أو التفكير الغلط؛ وبالطبع فإن هذا ينحصر في دائرة الخيال والوهم، أمّا في منطقة العقل الخالص، والتجرّد التام فلا مكان للشيطان هناك.

فالمغالطة، والسفسطة، وسوء الفهم، وإثارة الشبهات، واللهاث وراء المتشابه، وعدم الرجوع إلى المحكم، كله هو نشاط فكري نظري، وهو من إلقاء الشيطان.

فالشيطان يدفع الإنسان إلى سوء الفهم أوّلاً، ثمّ يجرّه إلى الجدال بالباطل: ﴿*حتّى إذا جاءوك يجادلونك*﴾[٥٤].

▣ المغالطة، والسفسطة، وسوء الفهم، وإثارة الشبهات، واللهاث وراء المتشابه، وعدم الرجوع إلى المحكم، كله هو نشاط فكري نظري، وهو من إلقاء الشيطان.

▣ الشيطان يدفع الإنسان إلى سوء الفهم أوّلاً، ثمّ يجرّه إلى الجدال بالباطل: ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك﴾.

▣ إذا تزامنت تلاوة القرآن والتدبّر فيه مع الاستعاذة من الشيطان والاستعانة بالله، فإن الهدف السامي من نزول الوحي سوف يترتّب على ذلك.

ضرورة الاستعاذة في عملية التفكير

فالمفكّر وهو يتأمّل يتوجّب عليه أن يستعيذ وعليه أيضاً أن يستعين، وأن يردّد الكلمة الطيبة: *بسم الله الرحمن الرحيم* ليكون في مأمن من همزات الشياطين ومن إيحاءاتهم وإلقاءاتهم.

فالشيطان يصوّر القبح جمالاً والباطل حقّاً من أجل أن يوقع العالم والمفكّر في حبائل الوهم والخيال الباطل.

فهو يعمل على تصوير وتزيين الدنيا لتكون أكثر خداعاً؛ ﴿*لأزيّننّ لهم في الأرض*﴾[٥٥] حتى إذا أصبح قادراً عليهم فإنّه يوجّههم الجهة التي يريد: ﴿*ولآمرنّهم*﴾[٥٦].

فالشيطان يبدأ أوّلاً بالوسوسة، فإذا أصبحت له سلطة في النفس أصبح حاكماً فتصبح النفس الإنسانية تحت سلطته وتصبح النفس آنذاك نفساً أمّارة بالسوء؛ لأن النفس لم تكن أمّارة بالسوء بدءاً. إنها تصبح كذلك بعد الذنوب، وهذا واضح من صيغة المبالغة

مثل البزّاز والخبّاز فهي لم تكن سوى مَلكة واستعداد قبل أن تكون حرفة، والنفس أيضاً فهي قد أصبحت أمّارة بعد أن كانت ملكة، فهي أمّارة بعد ازدياد الأمر وتحوّل الإنسان إلى أسير في قبضتها.

وإذن فالنفس في بدايتها أميرة ثم تصبح أمّارة، وهي تصبح كذلك تحت تأثير وإغواء الشيطان؛ ذلك لأنّه يبدأ بالوسوسة، ثم شيئاً فشيئاً يصبح أمّاراً بالسوء.

وعلى هذا، وجب عدم الغفلة عن الاستعاذة والاستعانة في البعدين النظري والعملي، خاصّة في القرآن الكريم؛ سواءً في التلاوة والقراءة أو في التدبّر.

فإذا تزامنت تلاوة القرآن والتدبّر فيه مع الاستعاذة من الشيطان والاستعانة بالله، فإن الهدف السامي من نزول الوحي سوف يترتّب على ذلك.

إن الله عزّوجلّ يعرّف نفسه في القرآن الكريم كمعلّم للقرآن: ﴿*الرحمن * علّم القرآن*﴾[٥٧]، وهي ذات الصفة التي ينعت بها النبي صلى الله عليه وآله: ﴿*ويعلّمهم الكتاب والحكمة*﴾[٥٨].

ومن هنا فإن الله هو معلّم القرآن بالأصالة، والنبي بالعرض وبالتبعية.

فالمعلّم صفة تختص بذات الله، وهي مسندة إلى رسوله من جهة أخرى.

فإن التعليم يأتي بعد المعلم نفسه، فإنّه مطّلع عليه ومستحضر له، ولذا فإن الله سبحانه في البدء قد نسب مسألة التدبّر للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن التعليم، يعني أن رسول الله قد شاهد أوّلاً حقائق الوحي، فتعلّم من القرآن، ثم علّم الآخرين، ولذا قال الله سبحانه:

﴿*فاستمسك بالذي أوحي إليك إنّك على صراط مستقيم*﴾[٥٩].

وجدير ذكره أن المعلّم العادي يتدبّر في البدء علمه الحصولي، ثم ينقل ذلك إلى المتعلّمين؛ أمّا رسول الله صلى الله عليه وآله الذي هو مُعلّم إلهي فإنّه يجد العلم الشهودي ثم ينقله إلى الآخرين حضورياً أو حصولياً.

الانشراح شرط في التلاوة

القرآن الكريم كتاب أُنزل بالحق وقد أنزل لهداية كل المجتمعات البشرية، ودعا الناس جميعاً إلى التدبّر في آياته. ولكن بعض الناس وبسبب الذنوب تنغلق قلوبهم فلا يوفقون إلى التدبّر في القرآن، وفي هذا يقول الله عزّوجلّ: ﴿*أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها*﴾[٦٠] أي لماذا لا يتدبّرون في معارف القرآن؟

إن القلوب مقفلة، مغلقة. الذنب هو قفل على القلب. إنه يغلق القلب فلا يدعه ينفتح على القرآن وحقائقه.

فكما أن الأبواب تغلق بأقفال حديدية،

فإن القلوب تغلق بالذنوب والمعاصي.

فالإنسان الذي لا يفتح قلبه لن يتمكّن من تدبّر القرآن فلا تنفذ إليه معانيه، وقد قال الله عزّوجلّ لنبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿*ألم نشرح لك صدرك*﴾[٦١]، ومن هنا وجد النبي قدرة على التدبّر الذي يتبعه التعلّم.

وإذن فمعلّم القرآن هو الذي يستطيع التدبّر فيه، وأهل التدبّر هم الذين شُرحت صدورهم. ومن شرح الله صدره، هو من لم يقفل قلبه بالذنب.

إن الله قد نزّه نبيّه في آية التطهير من الذنوب والمعاصي، وكلّما شرح الإنسان صدره كان القلب أكثر انفتاحاً لنيل المعارف القرآنية الرفيعة، وكان له نصيبه الأوفر في تدبّر القرآن والأنس به.

وعلى هذا يتّضح أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان الأكثر من غيره أنساً بالقرآن لأن الله شرح صدره، وكان قلبه أكثر انفتاحاً لاستلام معارف الوحي، لأنه صلى الله عليه وآله لا يأنس بشيء ولا كلام أنسه بالقرآن الكريم.

فقلبه مفتوح، وهو ليس على استعداد لأن يتعلق بغير القرآن، لأن غير القرآن لا يعدو سوى أن يكون غفلة ومعصية تغلق القلب وتقفله، ومن هنا كان رسول الله صلى الله عليه وآله يسعى في تنظيم سيرته كلّها في ضوء القرآن الكريم، وهذا ما نشاهد نماذجه في عبادته وحياته الشريفة.

صلاة الليل حرب ضدّ الشيطان

لقد دعا الله عزّوجلّ رسوله الكريم إلى إحياء لياليه بالعبادة: ﴿*ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً*﴾[٦٢]، فانطلق الرسول إلى عبادة الله حتى نزل قوله تعالى يخاطبه: ﴿*طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى*﴾[٦٣].

عندما يستطيع الانسان أن يُحيي ليله بالعبادة حقّاً، فإن التناغم سيحصل بين عبادة العمل وعبادة الفكر.

ولهذا كان صلى الله عليه وآله يُحيي ليله بالعبادة والتهجّد، ولهذا نرى الآيات في سورة آل‌عمران تناغم بين إحياء الليل والتفكّر بالمعارف.

ولقد ورد عن النبي في كيفيّة صلاته في الليل؛ أنه كان يهيئ أسباب الوضوء والسواك من قبل، كمقاتل يعدّ أسلحة المقاومة. كان لا يذوق النوم إلّا مضمضة.. كان يغفو قليلاً ثم ينتبه... ينتبه إلى قلبه أن يغفل.

فلم يؤجل صلى الله عليه وآله صلاة الليل كالآخرين إلى ما قبل طلوع الفجر بقليل ليصلّي صلاة الليل إحدى عشرة ركعة دفعة واحدة.. كان ينام قليلاً ثم ينتبه ليصلّي ركعتين، ثم ينام قليلاً أيضاً لينهض مرّة أخرى ويصلّي.. والصلاة بهذه الصورة صعبة بالطبع..

لم يكن له صلى الله عليه وآله نوم طويل. كان ينتبه

بين ساعة وأخرى ثم يتطلّع إلى السماء المليئة بالنجوم ويردّد هذه الآيات:

﴿*إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب* * *الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقِنا عذاب النار*﴾[٦٤].

ومثل هذه الآيات تثير لدى الانسان حالة من التفكير في نظام الكون، إضافة إلى الكشف عن غائية الخليقة والوجود ودعوتها الإنسان للتقوى والتسامي.

البساطة في الحياة

وكما أن رسول الله قد نظم عبادته في ضوء القرآن الكريم، فإن سيرته المباركة صلى الله عليه وآله هي الأخرى منظمة في ضوء كتاب الله العزيز. فمثلاً روي عن الباقر عليه السلام أن رسول الله أوتي مفاتيح الأرض، ولا ينزل من مقامه شيء فما رضي بذلك واختار حياة الزهد والبساطة، قائلاً: بل أجوع يوماً وأشبع يوماً.

وهذه الحياة البسيطة إنّما جاءت في ضوء القرآن الكريم كما هو واضح في الآيات:

١ ـ ﴿*فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم*﴾[٦٥]، فلا تبهرك حياة الكفّار من بذخ في الحياة وتكاثر في الأموال والأولاد إنّها فتنة لهم، لأن الشيطان سوف يشاركهم فيها ﴿*وشاركهم في الأموال والأولاد*﴾[٦٦].

٢ ـ ﴿*ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه*﴾[٦٧] وهي آية أخرى كسابقتها تدعو النبي صلى الله عليه وآله إلى حياة البساطة، وهذا التعبير الموحي عن الدنيا (زهرة) إنّما يشير إلى زينة الحياة الدنيا مؤقتة وسريعة. إنها كالبراعم فلها إذن عمر البرعم، وهو تعبير منتشر في كثير من آيات القرآن الكريم، وتبقى تلك الدنيا منحصرة في خداعها في شكل البرعم الذي لن ينمو ليصبح ثمرة حقيقية.. فهؤلاء المخدوعون سرعان ما يخسرون مناصبهم بسبب المرض أو الشيخوخة والضعف أو بسبب عوامل سياسية واجتماعية.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينام على حصير خشن حتى إذا نهض ظلّت آثاره مطبوعة على وجهه.. وطالما تساءل بعض أصحابه عن ذلك؛ وكثيراً ما قالوا اجعل بينك وبينه شيئاً ليّناً فإذا هو يقول: «*ما بعثت ملكاً ولكنّي بُعثت رسولاً نبيّا*»[٦٨] ولقد «*نجا المخفّون*»[٦٩].

فالنجاة والوصول إلى المقصد بسرعة وأمان يكمن في التخفّف.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «*تخفّفوا تلحقوا*»[٧٠]. فالأثقال والأحمال ليست من فضائل الأخلاق، ولا يجتمع طلب الآخرة مع الرغبة في الدنيا؛ فالفاصلة بينهما، كالفاصلة بين المشرق والمغرب.

▣ كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينام على حصير خشن حتى إذا نهض ظلّت آثاره مطبوعة على وجهه.. وطالما تساءل بعض أصحابه عن ذلك؛ وقالوا اجعل بينك وبينه شيئاً ليّناً فإذا هو يقول: «ما بعثت ملكاً ولكنّي بُعثت رسولاً نبيّاً» ولقد «نجا المخفّون».

إنهما ككفّتي الميزان إذا زدت في إحداهما خفّت الأخرى «*فلا تجتمع الغريمة والوسيمة*».

ولو أن رسول الله لم ينظّم حياته في ضوء القرآن ما أصبح معلّماً للناس ومزكّياً للإنسانية.

وعندما يكون النبي معلّماً يعني أنّه أسوة للمتّقين وأنه يفتح الدرب أمام الذين يريدون أن يزكّوا أنفسهم؛ ولذا قال الله عزّوجلّ في حقّه: ﴿*وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ*﴾[٧١] فالقرآن إنذار للناس.

الخروج من الظلمات

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿*كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور*﴾[٧٢]، فهو عقيدة نور. فمن يلجأ إلى القرآن فإنّما يلجأ إلى النور فراراً من الظلمات.

وقد قال رسول الله *صلى الله عليه وآله* ذات يوم لأصحابه: «*وإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن*»[٧٣]. ذلك أن القرآن علم مصون من الجهل والخطأ، وكتاب دليل ونجاة من الحيرة، وشفاء للناس من كل الشرور.

فمن لم يكن من أهل القرآن، فلا يمكنه أن يميّز الطريق الصائب من غيره. ومن لم يكن من أهل الطهر فليس له في تدبّر القرآن نصيب.

إن القلب المقفل لا ينفتح على القرآن، ومن أراد أن يعرف هل قلبه مفتوح أم مقفل، فليعرض نفسه على النبي *صلى الله عليه وآله* أسوة الإنسانية، لأن كل ما في القرآن قد تجسّد في النبي واتّحد معه.

ومن كان على علاقة بالقرآن ثم ظنّ أن

فائدة الآخرين أكثر منه، فقد صغر القرآن إذن. فالنبي صلى الله عليه وآله يقول: «*أُعطيت خمساً*»(٧٤) أي أن الله أعطاه خمساً لم يعطها غيره من الأنبياء وكان منها *جوامع الكلم*.

وعندما سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن *جوامع الكلم*. قال: *القرآن*. فالقرآن جامع لكل المعارف والحقائق.

ومن هنا كان رسول الله يكثر من قراءة القرآن ومن التدبّر في آياته ومن العمل بأحكامه وكان يسعى في نشره بين الناس.

ومن هنا جعله الله سبحانه معلّماً للقرآن وربّانيّاً:

﴿وما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾(٧٥).

لا يحق لمن آتاه الله الكتاب وأوحى إليه أن يفسِّر الوحي كما يشاء، لا يليق به سوى شيء واحد وهو أن يكون عالماً ربّانياً وأن يدعو الناس لأن يكونوا ربّانيين.

كان المسلمون في ميادين المعارك يصطفون بأمر النبي صلى الله عليه وآله وكان شعارهم الصلاة والأذان والإقامة، وهي كلمات موحية بعكس الناقوس الذي لا يعدو أن يكون جرساً ليس غير.

كان شعار المسلمين في بعض معاركهم حم **لا ينصرون**، وبهذا العمل تنفتح القلوب على القرآن.

وكان النبي يكثر من ذكر الآيات التي وصفها الله عزّوجلّ بالأسماء الحسنى.

وقد روى أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في معركة بدر الكبرى ساجداً وهو يردّد: «*يا حيّ يا قيّوم*».

فهذا الذكر الشريف «يا حيّ يا قيّوم» من أسماء الله الحسنى كما يستفاد ذلك من القرآن الكريم في آية الكرسي، فجاءت بشكل «يا حي يا قيّوم».

ومن هنا يتّضح لنا أن الرسول صلى الله عليه وآله وفي مثل هذه الظروف لا يستند إلى الأسلحة والقدرة القتالية، لأنها في رأيه وسائل عادية، أمّا العامل الأساس ومسبّب الأسباب فهو الله سبحانه، الذي يستمدّ منه النصر.

لأن من بلغ مقام القرب الإلهي على اطّلاع بما يجري في عالم الغيب، وهو يدرك شروط النصر الغيبي.

الدعاء والمناجاة

ينقل المرحوم *الراوندي* في كتابه *الدعوات*، أن رجلاً قال في حضرة النبي صلى الله عليه وآله: «*يا أرحم الراحمين*».

فقال له النبي: «*إسأل فقد نظر الله إليك*».

وبالطبع فإن هذا يحتاج إلى رؤية شمولية لكي يدرك المرء اللحظات التي ينظر فيها الربّ إلى عبده.

▣ لو أن رسول الله لم ينظّم حياته في ضوء القرآن ما أصبح معلّماً للناس ومزكّياً للإنسانية.

نعم، إن الله ﴿*بكل شيء بصير*﴾[٧٦] إلّا أن أهل التدبّر في القرآن يدركون أن المهم هو النظر الخاص، فهناك من ينظر الله إليهم وهناك من لا ينظر إليهم: ﴿*ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم*﴾[٧٧].

ورسول الله من أولياء الله المقرّبين وهم مطّلعون على هذا الأمر ويعرفون من ينظر الله إليهم من الناس.

إن سيرة النبي الكريم منطبقة على الوحي، وهذا طبعاً لا يتيسّر للجميع، بل إنه مختص بالنفس الزكية التي تعرف: ﴿*ماذا تكسب غداً*﴾.

▣ كان رسول الله يكثر من قراءة القرآن ومن التدبّر في آياته ومن العمل بأحكامه وكان يسعى في نشره بين الناس.

غير أن أكثر الأنفس لا تدري ﴿*ماذا تكسب غداً*﴾[٧٨]، وما تدري بأي أرضٍ تموت. فلا يتيسّر لها أن تنسق بين سيرتها والقرآن الكريم إلى هذا القدر؛ وإن كان الإنسان أحياناً يدرك فيما إذا كان الله ينظر إليه أم لا.

فالإنسان الذي يعيش حالة من المناجاة مع الله يعلم إن الله ينظر إليه، وعلى قول أحد العرفاء: «*إذا أنت لم تطلب هبة؛ لا هبة طلبت*» يعني أنّه إذا لم ترغب بأن تهبنا، فإنك لا تهبنا حالة الطلب.

▣ كان النبيّ يكثر من ذكر الآيات التي وصفها الله عزّوجلّ بالأسماء الحسنى.

فلأننا نطلب منك شيئاً، فلأنك وفقتنا لأن ندعوك ونتضرّع إليك، ومن هنا نعلم أنك تريد أن تهبنا شيئاً.

كان رسول الله *صلى الله عليه وآله* كثيراً ما يقرأ هذه الآية المباركة: ﴿*قل إني أخاف إن عصيت ربّي*

عذاب يوم عظيم﴾[٧٩].

كان النبي يعيش هذه الحالة من الخوف، حتى نزلت سورة الفتح:

﴿*إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر*﴾[٨٠] فشعر بشيء من الطمأنينة.

والغفران لدى غير المعصومين يعني رفع الذنب الموجود وللمعصومين دفعه، يعني أن الله يوفّقهم لدفع الذنب فلا تجد الوسوسة طريقها إلى قلوبهم، فلا تتنافى عصمتهم مع حرّيتهم.

فالعصمة أساساً تنهض على أساس العلم لا الجبر، ذلك أن الله قد وفّقهم لأن يروا الذنوب كالسم الزعاف، فمن يتّقي السم ويجتنبه فلحسن في انتخابه وإرادته.

إذن كان النبي *صلى الله عليه وآله* يعيش حالة من الخوف والرجاء وهي تنطلق من القرآن الكريم، فأصبح أسوة للمجتمع الإنساني.

إن على الجميع أن يجعلوا نصب أعينهم الآية الكريمة: ﴿*إني أخاف إن عصيت ربي*﴾[٨١] فيكثروا من تلاوتها حتى يبلغوا حالة الطمأنينة واللطف الإلهي: ﴿*ألا بذكر الله تطمئن القلوب*﴾[٨٢].

على الإنسان ما دام حيّاً أن يعيش حالة الخوف والرجاء ليكون أمله في آخر عمره أكثر من خوفه كما كان خوفه في أوائل عمره أكثر من أمله ورجائه.

□ إن سيرة النبيّ الكريم منطبقة على الوحي، وهذا طبعاً لا يتيسّر للجميع، بل إنه مختصّ بالنفس الزكية التي تعرف: ﴿ماذا تكسب غداً﴾.

□ كان النبيّ يعيش حالة من الخوف والرجاء وهي تنطلق من القرآن الكريم، فأصبح أسوة للمجتمع الإنساني.

□ كانت سيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في تكريم الشهداء هي تلاوة وحي الله عزّ وجلّ.

□ إن النبيّ كان يسعى في أن يعلّم المسلمين القرآن الكريم وكذا تأويله.

ولذا فإن الخوف من النار سيكون سبباً في عمل الخيرات، وكذا الأمل بالنعم والثواب والجنّة .. وبهذا لا يكون لكليهما أثر سلبي.

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله لمّا نزلت الآية الشريفة: ﴿*سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار*﴾[٨٣] يذهب في كل عام إلى قبور الشهداء في جبل أحد.

إن العاقبة لأهل التقوى: ﴿*والعاقبة للمتقين*﴾[٨٤].

يعني إن البشرية ستبلغ هذه الحالة وهي حالة المجتمع المثالي والمدينة الفاضلة في الدنيا، والكرامة في الآخرة.

كانت سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في تكريم الشهداء هي تلاوة وحي الله عزّوجلّ، ربّما يأتي الآخرون في مزار الشهداء لتكريمهم، ولكن أدب التكريم يجب أن نأخذه من القرآن، فرسول الله صلى الله عليه وآله تعلّم ذلك من القرآن.

التأويل والتنزيل

وفي اللحظات الأخيرة من عمره الشريف صلى الله عليه وآله استدعى أمير المؤمنين عليه السلام فناجاه وأسرّه، ولما سئل أمير المؤمنين عمّا أخبره النبي قال: علّمني رسول الله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب..

لقد تعلّم الإمام في تلك الساعة مليون موضوع علمي ولا تتحدّد تلك العلوم بهذا الرقم وإن بدا كبيراً، فقد يتعدّى إلى ما هو أكثر من ذلك.

وعندما سُئل الإمام علي عليه السلام عن هذا المحو في القمر وعن ضوء الشمس هل علم سرّه من رسول الله، أجاب الإمام بالإيجاب، وأن الله سبحانه قال في كتابه الكريم: ﴿*وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة*﴾[٨٥].

ومن هنا ندرك أن ما تعلّمه الإمام عليه السلام من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن سوى رموز وأسرار عميقة لا تنحصر في ظاهر اللفظ، ذلك أن المعنى الظاهر للآية الكريمة لا يفيد هذا المعنى في كون الليل والنهار رمزين للقمر والشمس.

وبعدها قال صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام:

إن قول الله عزّوجلّ: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾[٨٦] *هم أنت وشيعتك، و ﴿إن الذين كفروا ... أولئك هم شرّ البرية﴾*[٨٧] *هم أعداؤك والمنحرفون عنك.*

والغرض؛ أن النبي كان يسعى في أن يعلّم المسلمين القرآن الكريم وكذا تأويله.

وكي لا تكون قطيعة بين التنزيل والتأويل، قال صلى الله عليه وآله: إن عليّاً أعلم الناس بتأويل القرآن وإنّه سيقاتل على تأويله كما قاتلتُ على تنزيله، وإنه هو المقصود بهذه الآية الكريمة:

﴿وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم﴾[٨٨].

ومن هنا فإن أعداء أهل البيت وإن بدوا مسلمين في ظاهر التنزيل ولكن حقيقتهم أنّهم كفّار على أساس التأويل، وإن أمير المؤمنين كان يحارب كفّاراً لا مسلمين.

ومن الموارد التي كان يدعو فيها النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله الآخرين إلى اتباع القرآن هو ما يحصل لدى فقد الأحبّة، فقد قال لابنته فاطمة عليها‌السلام لمّا قربت وفاته:

لا تخمشي وجهاً ولا تشقّي جيباً، إن المرء ليحزن قلبه وتدمع عيناه ولكنه يبقى صابراً محتسباً، وكي تكون وصيّته قرآنية تلا قوله تعالى: ﴿*ولا يعصينك في معروف*﴾[٨٩].

إن المؤمنات لا يعصين النبي. فمن شقّت جيباً على عزيز لها أو خمشت وجهاً فقد عصت النبي.

وصايا النبيّ

وروى ابن مسعود؛ أن النبي نظر في أخريات حياته إلى القمر وأظهر الأسف ودعا الله سبحانه ثم قال:

أوشك أن أدعى فأجيب وإني مخلّف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي؛ أحدهما كتاب الله والآخر عترتي أهل بيتي، ثم قال: «أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم إني لكم نذير مبين، فإن الله سبحانه أمر لي ولكم قال لي ولكم: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً﴾[٩٠].

يعني أن الله أوصاني وإيّاكم في أن لا نطغى ولا نتكبّر على عباد الله وأن نجتنب التكاثر ونطلب الكوثر.

إن البعض يلهث وراء الفساد والعلوّ في الأرض، ووراء التكاثر. وهذه الإرادة قد تكون محدودة وقد تتسع تبعاً للإمكانات المتوافرة. فبعض ينجح في ذلك وبعض يخفق، والجنّة لا تكون من نصيب الفريق الأوّل بل أيضاً لن تكون حظ الفريق الثاني لأنّهم كانوا من أهل الفساد في الأرض، لأن إرادتهم في خط الفساد. فالجنّة لا تكون لأهل الجنّة لأنهم لم يفسدوا في الأرض، بل لأنهم لم يريدوا الفساد، فلم تكن لتموج في قلوبهم إرادة الفساد وحبّ الجاه والتكاثر؛ وكانوا ينظرون إلى المناصب باعتبارها مسؤوليات لا امتيازات.

ولقد قال عزّوجلّ: ﴿*تلك الدار الآخرة*﴾ فتلك إشارة تفيد البُعد.

فهو يشير إلى سموّ أهل الجنة في منزلتهم ودرجتهم؛ وإن كانت تلك الدار حاضرة ومعدّة ﴿*أُعدت للمتّقين*﴾[٩١]، ﴿*أُزلفت الجنة للمتقين*﴾[٩٢] ولكنها في عين الحضور الوجودي بعيدة، ودرجتها عالية كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿*هنالك الولاية لله الحق*﴾[٩٣] فلأن الولاية الإلهية من المنعة

والقوّة بحيث قدّم لها بـ «هنالك» وهي تفيد الرفعة والدرجة الرفيعة.

والمقام الرفيع من تواضع الإنسان وعلوّ همّته، وما الإنسان الذي ينشد الدنيا إلّا دنيئاً. والأدنياء لا طريق لهم إلى المنازل الرفيعة؛ كما هو الحال في الأشرار، فإنهم تحت ولاية الشيطان وليس لهم في ولاية الله من نصيب.

ولما كانت سيرة النبي صلى الله عليه وآله وحياته ـ عبادياً واجتماعياً، ثقافياً وسياسياً وغير ذلك ـ منسجمة مع القرآن الكريم، فقد جعله الله أسوة للآخرين لتبقى قداسته وحرمته في ذلك الوجود المبارك محفوظة، ويقدّسها الآخرون.

ومن هنا نجد أن الله سبحانه وهو يخاطب الأنبياء بأسمائهم قائلاً: ﴿*يا نوح*﴾، ﴿*يا داود*﴾ وغيرهم، فإذا جاء الدور إلى النبي صلى الله عليه وآله خاطبه: ﴿*يا أيها النبي*﴾، ﴿*يا أيها الرسول*﴾، ﴿*يا أيها المدّثر*﴾، وقد ذكر اسم النبي باسمه (محمّد) في أربعة مواضع [الآية ١٤٤ من سورة آل عمران، والآية ٤٠ من سورة الأحزاب والآية ٢ من سورة محمد والآية ٢٩ من سورة الفتح وأيضاً ورد اسمه (أحمد) في الآية ٦ من سورة الصف] ولم ترد هذه الأسماء صراحة إلّا لضرورة كما هو الحال في مسألة خاتمية النبي صلى الله عليه وآله.

وكذلك عندما يأمر الله الذين آمنوا أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ولا يخاطبوه بالاسم، وألّا يعاملوه كما يعامل بعضهم بعضاً، ولا يسيئوا الأدب في حضرته: ﴿*لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي*﴾[٩٤].

﴿*لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً*﴾[٩٥].

وعندما يقول النبي صلى الله عليه وآله أن القرآن حبلٌ ممدود طرف منه بيد الله وطرفه الآخر في أيديكم، فإن معنى هذا أن تكون حياتكم في ضوء القرآن وأن لا تهجروا كتاب الله هذا، وأن تتمسّكوا به، وتحيوا الحق حتى تُرفع رؤوسكم، وتكونوا قوماً مفلحين.

□ لما كانت سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وحياته ـ عبادياً واجتماعياً، ثقافياً وسياسياً وغير ذلك ـ منسجمةً مع القرآن الكريم، فقد جعله الله أسوة للآخرين لتبقى قداسته وحرمته في ذلك الوجود المبارك محفوظة، ويقدّسها الآخرون.

الهوامش

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.
(٤) سورة المزمل، الآية ٥.
(٥) سورة الأحزاب، الآية ٢١.
(٦) سورة المزمل، الآية ٢٠.
(٧) سورة محمّد، الآية ٢٤.
(٨) سورة القيامة، الآية ١٧.
(٩) سورة القيامة، الآية ١٨.
(١٠) سورة العلق، الآية ١.
(١١) سورة البقرة، الآية ٢٥٢.
(١٢) سورة الكهف، الآية ٢٧.
(١٣) سورة القصص، الآية ٥٩.
(١٤) سورة الفرقان، الآية ٣٢.
(١٥) سورة المزمل، الآية ٤.
(١٦) سورة التكوير، الآيتان ١٩، ٢٥.
(١٧) سورة النمل، الآيتان ٩١، ٩٢.
(١٨) سورة المزمل، الآية ٤.
(١٩) سورة النحل، الآية ٩٨.
(٢٠) البحار، ج ٤١، ص ٣٥٣.
(٢١) سورة الأعراف، الآية ٢٠٠.
(٢٢) سورة العلق، الآية ١.
(٢٣) سورة الشعراء، الآيتان ١٩٣، ١٩٤.
(٢٤) سورة الأعلى، الآية ١.
(٢٥) سورة ق، الآية ١٦.
(٢٦) سورة الناس، الآيتان ٥ ـ ٦.
(٢٧) البحار، ج ١٦، ص ٢٨٧، ح ٤٢.
(٢٨) سورة المزمّل، الآية ١٧.
(٢٩) البحار، ج ١٦، ص ١٩٢، ح ٢٨.
(٣٠) سورة النساء، الآية ٤١.
(٣١) سورة الاسراء، الآية ٤٥.
(٣٢) دعاء أبي حمزة الثمالي.
(٣٣) الملَل والنحل: ١٢٥.
(٣٤) سورة المطففين، الآية ١٥.
(٣٥) سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.
(٣٦) سورة الحشر، الآية ٧.
(٣٧) البحار، ج ٥، ص ٢١.
(٣٨) سورة النجم، الآية ٣.
(٣٩) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.
(٤٠) سورة الحديد، الآية ٤.
(٤١) الملل والنحل: ١٢٥.
(٤٢) سورة الصافات، الآية ١٦٣.
(٤٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٢٥٢، الخطبة ١٧٦.
(٤٤) سورة محمّد، الآية ١٧.
(٤٥) سورة الأنفال، الآية ٢.
(٤٦) سورة العلق، الآية ١.
(٤٧) سورة الاعراف، الآية ٢٠٤.
(٤٨) سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.
(٤٩) سورة المزمل، الآيات ٢ ـ ٤.

(٥٠) سورة المزمل، الآية ٦.
(٥١) سورة الأعراف، الآية ١٦.
(٥٢) نهج البلاغة، خطبة ٢٢٤.
(٥٣) سورة الأنعام، الآية ١٢١.
(٥٤) سورة الأنعام، الآية ٢٥.
(٥٥) سورة الحجر، الآية ٣٩.
(٥٦) سورة النساء، الآية ١١٩.
(٥٧) سورة الرحمن، الآيتان ١ ـ ٢.
(٥٨) سورة البقرة، الآية ١٢٩.
(٥٩) سورة الزخرف، الآية ٤٣.
(٦٠) سورة محمد، الآية ٢٤.
(٦١) سورة الانشراح، الآية ١.
(٦٢) سورة الإسراء، الآية ٧٩.
(٦٣) سورة طه، الآيات ١ ـ ٢.
(٦٤) سورة آل‌عمران، الآيات ١٩٠، ١٩١.
(٦٥) سورة التوبة، الآية ٥٥.
(٦٦) سورة الإسراء، الآية ٦٤.
(٦٧) سورة طه، الآية ١٣١.
(٦٨) إحياء العلوم.
(٦٩) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٦٤، ح ٥٧٦٢.
(٧٠) نهج البلاغة، الخطبة ٢١، ص ١٦٧.
(٧١) سورة الأنعام، الآية ١٩.
(٧٢) سورة إبراهيم، الآية ١.
(٧٣) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٧، ح ١٦.
(٧٤) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٨، ح، ١٧.
(٧٥) سورة آل‌عمران، الآية ٧٩.
(٧٦) سورة الملك، الآية ١٩.
(٧٧) سورة آل‌عمران، الآية ٧٧.
(٧٨) سورة لقمان، الآية ٣٤.
(٧٩) سورة الأنعام، الآية ١٥.
(٨٠) سورة الفتح، الآيات ١ ـ ٢.
(٨١) سورة الأنعام، الآية ١٥.
(٨٢) سورة الرعد، الآية ٢٨.
(٨٣) سورة الرعد، الآية ٢٤.
(٨٤) سورة الأعراف، الآية ١٢٨.
(٨٥) سورة الإسراء، الآية ١٢.
(٨٦) سورة البيّنة، الآية ٧.
(٨٧) سورة البيّنة، الآية ٦.
(٨٨) سورة آل‌عمران، الآية ٧.
(٨٩) البحار، ج ٢١، ص ١١٣، ح ٦.
(٩٠) البحار، ج ٢٢، ص ٤٥٥، ح ١؛ والآية ٨٣ من سورة القصص.
(٩١) سورة آل‌عمران، الآية ١٣٣.
(٩٢) سورة الشعراء، الآية ٩٠.
(٩٣) سورة الكهف، الآية ٤٤.
(٩٤) سورة الحجرات، الآية ٢.
(٩٥) سورة النور، الآية ٦٣.